﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾:

آية وحيدة تحمل صيغة الأمة الوسط، لا تشبهها إلّا آية الحج إلّا في لفظ الوسط: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾[1].

فهذه وإن لم تحمل صيغة الوسط، ولكنها تواصفه تفسيراً له أنهم هم الوسط بين الرسول والناس، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التحويل للقبلة الأصيلة إلى قِبْلَة يهودية، خروجاً عن العنصرية والطائفية فيها، كذلك البعيد المدى، الوسيع الصدى، البليغ الهدى من صبغة الإسلام وإسلام الصبغة ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فما هو الوسط لهذه الأمة، ومن هم المعنيون بـ «كم أمة؟» أهم الوسط بين إفراطِ الحياة الجسدانية وتفريطِ الحياة الروحية، حيث الوسط بينهما جامع لهما مهما كانت الحياة الروحية هي الأصيلة بينهما؟.

وهذا مهما كان صحيحاً في نفسه، ولكنه لا يُناسب خلفيته الصريحة هنا: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فإن هذه الوسطية تتطلّب مرجعية الأمة الوسط لطرفي الإفراط والتفريط، لا أن تكون شهيدة عليهم، إلّا بمعنى الرقابة على أعمالهم كشهادة خاصة! أم شاهدة عليهم في حقل الاعتدال، نِبْراساً لهم في ترك الأنانية والإنية الطائفية، وتحلُّلاً في شرعة الله عن الانحيازات غير الشرعية، اتباعاً لأمر الله كيفما كان وإن في ترك المجد القِبلي والقَبلي، كما وأن الوسط اليهودي والنصراني لا يمتُّ بصلةٍ لهذه الوسطية الإسلامية لأنهما من أهل الكتب السماوية وهي كلّها تحمل الشرعة

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

المعتدلة الوسط، اللّهم إلّا بالنسبة لإفراط اليهود في الاتِّجاهات المادية، وتفريط النصارى فيها مبدئياً كنسيّاً - مهما تورطوا في الماديات وأكثر من اليهود، ولكن ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يختصّ الوسط بجعلٍ ربانيٍّ وليس الإفراط والتفريط يهودياً ونصرانياً من جعل الله!... أم هم الوسط بين الرسول والناس، كما يُنادي به الانقسامات الثلاثة: شهداء على الناس - الرسول الشهيد على الشهداء، وناس، فطبيعة الحال قاضية هنا باختصاص للشهداء على الناس بهذا الرسول الشهيد عليهم.

فهل هم - بعدُ - كل الأمة الإسلامية؟ وفيهم بغاة وفساق طغاة! أم وعدول لا يصلحون للشهادة على الناس![1] اللّهم إلّا شهادة على حق الوسط الاعتدال.

إن نفس الشهادة على الناس كوسط بين الرسول والناس، يحدُّ موقف الأمة الوسط، فهنالك شهادة متعدية بنفسها: شهده، وهنا «شهد على» أم شهادة له لصالحه كدعاية ذاتية، أم تمثيلاً للكيان الرسولي؟ وهنا «شهد على».

فـ«شهده» تتطلّب حُضوراً عند العمل أياً كان، حُضوراً ذاتياً أم علمياً، ولا يتيسّر إلّا للرسول ﷺ والمعصومين من عترته عليهم السلام!

---

(١) نور الثقلين ١: ١٣٥ عن تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاعٍ من تمرٍ يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلّا! لم يعنِ الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهم الأمة الوسطى وهم خير امة أخرجت للناس.

أقول: فكما الرسول شهيد على الأمة الوسط كذلك الأمة الوسط شهيدة على الناس، وقد تعني الشهادة هنا كل مراحلها ولكنها محصورة في الشهادة على، من شهادة على الأعمال لكي تكون وسطاً، وشهادة عليها إلقاء لها يوم يقوم الاشهاد فلا بدّ أولاً من تلقّيها.

و«شهد له» محصورة في بعديها بالعدول الصالحين من الأمة المسلمة.

ثم و«شهد عليه» هنا في الدعاوى، تتطلب العدالة، وليست الأمة - ككلّ - عادلة، ولا أن الآية تختص الشهادة بالدعاوى.

و«شهد عليه» هنا في الأعمال، تختص بالصالحين الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، دون كلّ الأمة ولا كلّ العدول، وتلك الدعوة - على شروطها - لا تختص بالأمة الإسلامية. و«شهد عليه» - إلقاء للشهادة على الأعمال يوم يقوم الأشهاد - يتطلب تلقياً لها هنا حضوراً ذاتياً أو علمياً بما يعلّمهم الله، وذلك مخصوص بالمعصومين! ثم ولا تختص تلك الشهادة بخصوص المعصومين من هذه الأمة!.

وعلى كلٍّ فلا تعني الآية كلَّ الأمة الإسلامية دون ريب، فقد تعني عُدول الأمة حيث يمثّلون الرسول ﷺ على قَدْرِ عدلهم بين الناس: مسلمين وسواهم، ثم وبأحرى العدول الدعاة من الأمة، الآمرة الناهية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] [2]، فهي مهما عمّت كلّ المؤمنين، إلّا أن مؤمني هذه الأمة أعلى محتداً ممن سواهم.

ثم في القمة، الأئمة الاثني عشر المعصومون عليهم السلام، فإنهم القمة العليا بعد الرسول ﷺ من الشهداء بكلِّ معاني الشهادة ومغازيها ومراميها ولا سيّما الشهادة على الأعمال والأحوال، فالوسط في الأمة هي العدل على مراتبه ومراتبهم[3] فلأن العدل في هذه الأمة أعدل منه في غيرها وأفضل،

(١) سورة الحديد، الآية: ١٩.

(٢) نور الثقلين ١: ١٣٣ عن الكافي بإسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام حديث طويل وفيه يقول: ولقد قضي الأمر أن لا يكون بين المؤمنين اختلاف ولذلك جعلهم شهداء على الناس ليشهد محمد ﷺ علينا ولنشهد على شيعتنا وليشهد شيعتنا على الناس.

(٣) الدر المنثور ١: ١٤٤ - أخرج جماعات عدة عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عباس وجماعة آخرين عن النبي ﷺ أن ﴿وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] في الآية تعني «عدلاً» والعدل =

فكأنَّ العدول منهم هم الشهداء - فحسب - على الناس، سواء ناسُ المسلمين أو الكتابيين أو المشركين والملحدين، إلّا أن لكلّ شهادة أهلها الخصوص دونما فوضى جزاف.

فمؤمنو هذه الأمة شهداء على الناس شهادة ذاتية بأعمالهم وأحوالهم، وشهادة على كيان هذه الرسالة السامية، شهوداً منه ﷺ على محتده الرسالي.

والدعاة إلى الله منهم شهداء على الناس رقابة على أعمالهم وأحوالهم، ودعوة لترقيتهم عن نقائصهم ممثلين للرسول ﷺ في كلّ دعواتهم الصالحة.

والأئمة المعصومون منهم - إضافة إلى هذه وتلك - هم شهداء على أعمالهم وأحوالهم، بل وعلى كافة المكلفين على مدار الزمن الرسالي دون إبقاء[١].

فأعلى الوسط بين الرسول ﷺ وبين الناس هم هؤلاء الأكارم، تمثيلاً للرسول ﷺ، كما هو، وتبييناً لشريعة الحق كما هي «إلينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصر»[٢].

= درجات كما بيناه في درجات الشهادات.

وفي نور الثقلين ١: ١٣٥ عن كتاب المناقب وفي رواية حمران بن أعين عنه عليه السلام إنما أنزل الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني: عدولاً - لتكونوا . . . ولا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمة والرسل عليهم السلام، فأما الأمة فإنه غير جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل.

(١) نور الثقلين ١: ١٣٤ في تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: نحن نمط الحجاز، فقلت: وما نمط الحجاز؟ قال: أوسط الأنماط، إن الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وثم قال: إلينا . .

(٢) نور الثقلين ١: ١٣٤ عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: نحن الأمة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه، ورواه مثله بريد العجلي عن =

كما وأن الشرعة الإسلامية هي الوسط المعتدل بين كلِّ إفراطٍ وتفريطٍ مختلَقَين في كتابات السماء، فنفس تحوّل القِبْلة إلى القدس ردحاً من الزمن وسطية واعتدال حيث تزال به العصبية القومية في القبلة، رغم أن القِبْلة الإسلامية هي الكعبة المباركة، بل هي القِبْلة في كلِّ الشرائع الإلهية، فرغم كل ذلك يُؤمر المسلمون قضاء على الإنحيازية القِبلية والقَبلية أن يتجهوا إلى القدس شطراً من العهد المدني، حال أن أهل الكتابين ليسوا تابعين قبلة بعضهم البعض رغم وحدة الشرعة التوراتية بينهم، فقد تعني ﴿وَسَطًا﴾ كلّ هذه الأوساط، متمحورة الوسط المعصوم الرسالي المتمثل في الأئمة الاثني عشر عليهم السلام أجمعين.

ثم ذلك الجعل يعمّ حَقْلَي التكوين والتشريع، فكينونة هذه الأمة الأئمة ومَن دونهم من العدول، هي مجعولة بجعل رباني بما سعوا، كما وشرعتهم بما طبّقوها فيما سعوا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] تمثُّلاً بالحَقْلَيْن، جمعاً بين الجَعْلَيْن، فكما ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[2] بكلا الجَعْلَيْن ثم جعل القدس قِبْلة مؤقتة ابتلاء للمسلمين وإزالة للفوارق الطائفية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أهل القِبْلة الواجبة لهم دعوة إبراهيم عليه السلام.

ووسط الرأي في الأمة الوسط، بعيداً عن كلِّ الانحيازات إلّا في حوزة الوسط وحيازتها، إنها هي الوسط بكلِّ معاني الوسط مهما اختلفت درجاتها وصِلاتها:

= الباقر عليه السلام. وفيه عن المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفضيل بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن علي عليه السلام: إن الله تعالى إيّانا عنى بقوله: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] فرسول الله صلى الله عليه وآله شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه ونحن الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣].

(١) سور النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ كمَجْعولةٍ إلهيةٍ - في التصوّر والعقيدة، بعيداً عن غلوِّ التجرُّد الروحي، وحمأة الركسة المادية، معطية لكلٍّ من الروح والجسد حقه دون أي إفراط أو تفريط.

ووسطاً في المشاعر والإدراكات، دون تجمُّد على حاضرها لتغلق عليها كلّ منافذ المعرفة تجريبياً أماهيه، ولا اتِّباع أعمى لكلِّ ناعق، بل هي منطلقة على ضوء الهدي القرآني والسنة المحمدية، قابلة كلّ ما يوافق هديها المعصوم وعقلها المقسوم وصراطها المرسوم.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ في تنسيق الحياة، فلا تطلقها - فقط - للضمائر والمشاعر، ولا تدعمها - فقط - للتشريع والتأديب، وإنما ترفع ضمائرها بالتوجيه والتهذيب، فلا تكلّ الناس إلى سوط السلطان ولا - فقط - إلى وحي الوجدان.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ في العلاقات الحيوية، لا تؤصِّل الفرد فالمجتمع كهامش له خادم، ولا تُلغي شخصية الفرد تأصيلاً للمجتمع، بل هما عندها أصلان، كلٌّ يخدم الآخر، ترجيحاً لكفة ميزان المجتمع لأنه مجموعة أفراد.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ في كلِّ وسط وفي جميع الأوساط، خارجة عن حدَّي الإفراط والتفريط، فوسطاً في النهاية تتمحورها كلَّ الأمم حيث تُسدِّد البشرية بِسُلْطَتِها المهدوية في آخر الزمن.

فلا تعني وسطاً وسطاً بين الأمم في الواقع الزمني للأمم، حتى يتعلّق به مُتعلِّق ممن يُنْكِرُ خاتمية الأمة الإسلامية، إنها الوسط بين الأمم، فقد تأتي أممٌ رسالية بعدها.

فإن ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكذلك ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾ تنفيان ذلك، حيث الوسطية بين الرسول والناس هي غير الوسطية بين الأمم، فتلك الوسطية تقتضي الخاتمية لهذه الأمة، حيث الوسطية الزمنية ليست فخراً ولا مستلزمة لكونهم

وسطاً بين الرسول والناس، فإنما يعني من ﴿وَسَطًا﴾ هنا ما يناسب تحويل القِبْلة كشرعة معتدلة، أو يناسب الشهادة على الناس وسطاً بين الرسول وبين الناس.

فما من شُرْعةِ حوِّلت فيها القِبْلة كما حوِّلت في شرعة الإسلام، ولا أمة وسط بين الرسول والناس، هم شهداء على الناس كما الرسول شهيد عليهم، اللهم إلّا شرعة الإسلام بأمتها.

فتلك الشرعة البعيدة عن كافة الانحيازات والامتيازات القبلية والعنصرية، هي الوحيدة بين كلّ شرائع الدين.

كما أن تلك الأمة الشهيدة على الناس هي الوحيدة بين كلِّ الأمم الرسالية على مدار الزمن الرسالي، والنظر إلى الآيات السابقة يوسع تلك الوسطية، فإنها تلتزم بصبغة الله دون الصبغة اليهودية أو النصرانية، وتلتزم بهدي الله تصديقاً بكلّ رسالات الله وكلّ ما أنزل الله دون التجمد على طائفية كتابية: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وكما هو وسط في القبلة، لا خصوص الكعبة ولا خصوص القدس، بل هما معاً مهما كانت الكعبة هي الأصيلة الدائبة، وكما كانت قبلة لكافة الموحدين أحياء وأمواتاً طول الزمن الرسالي.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ فيها بيان الحكمة الحكيمة لجعل القبلة الابتلائية السابقة، بلمحة أنها كانت مؤقتة لمصلحة وقتية، وكأن الله يعتذر فيها إلى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

الرسول ﷺ من جَعْل تلك القبلة، وعلّه لم يسمِّها تخفيضاً لشأنها أمام الكعبة المباركة، ولمحة في لمحات أن لم يبتدأ الإسلام بها عند بزوغه، وإلّا كان الحق الصحيح والفصيح أن يعبر عن القدس كقبلة وإن في مرة يتيمة، ولا نجد في القرآن كله بيت عبادة ومتجَهٍ للصلاة إلّا الكعبة المشرفة، تارة كـ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[١] - وطبعاً ليس للسكن، فإنما للطواف حوله والصلاة تجاهه - وأخرى ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[٢] ومن مثابته: المُقَبل، إقبالاً إليه حجاً له، واستقبالاً للصلاة إليه، وثالثة يُؤمر الخليل بتطهيره ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٣] وهذه الثالثة المعبرة عن الصلاة تعم الصلاة فيه أم في المسجد الحرام، ثم في المعمورة كلها، ومن ثم الكون كله، أن يستقبلوا البيت الطاهر عن قذارات خبيثة، وعن الرجس من الأوثان.

ولا موقع لـ﴿لِنَعْلَمَ﴾ إلّا في ظرف التحول عن الكعبة إلى القدس دون العكس فإنّه مرغوب لكلٍّ من أسلم، والكبيرة إلّا على الذين هدى الله ليست إلّا القدس المتحول إليها من الكعبة، فهذه من اللمحات اللمعات كصراحة أن القدس هي ثاني القبلتين.

و«نعلم» هنا هي من العلم العلامة، كما تشهد له وحدة المفعول وللعلم مفعولان اثنان[٤] فـ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي القدس، جعلناها قبلة بديلة عن القبلة الأصيلة، ردحاً مؤقتاً في بداية العهد المدني ﴿وَمَا جَعَلْنَا... إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علامة واقعية ظاهرة باهرة لـ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ حقاً ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ جاهلياً.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٤) في آيات عشر أو تزيد نجد هذه الصيغة مصوغة من العلم لا العلم، وفي الكلّ نجد مفعولاً واحداً لا يُناسب العلم المتطلبة مفعولين، فلا حاجة إلى تعليلات عليلة لها.

فلقد كانت العرب تعظِّم البيت الحرام عربياً جاهلياً، ولمّا آمن منهم من آمن وكانت قبلتهم إسلامياً هي قبلة مجدهم القومي، ولمّا يخلصوا ويتخلصوا عن آصرة القومية، أراد الله منهم أن يتجردوا في قبلتهم - كما في كلّ شيء - إسلامياً، تخليصاً حثيثاً من كلِّ تعلقة بغير المنهج الإسلامي، فابتلاهم في الفترة الأولى المدنية - وهم بين اليهود - أن يتحولوا إلى القدس ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ كرسول لا كعربي، اتباعاً مجرداً من كلِّ إيحاء غير إسلامي ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ صراحاً أم نفاقاً عارماً من هؤلاء الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، أو لمّاً، فإن فيها رواسب من الجاهلية الجهلاء، ليسوا ليستقبلوا قبلة اليهود، تاركين بيت مجدهم القومي القديم! فإنه الآن على أشراف تأسيس دولة إسلامية، لا تصلح لها إلّا أعواد وأعضاد وأعماد صالحة، خالصة عن كلّ نزعة غير إسلامية، فلُيبتلوا بذلك البلاء العظيم، ليُعرف الغثُّ من الثمين والخائن من الأمين ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ بما اهتدوا بهُدى الله، بعيدين عن كلِّ هوى إلّا هَوى الله وهُدى الله، و«إن ناساً ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة هاهنا ومرة هاهنا»[(١)].

وهكذا تتجرَّد القلوب متخلصة من كلِّ رواسب الجاهلية ووشائجها، ومن كلِّ سِماتها القديمة ووصماتها، ومن كلّ رغائبها الدفينة، متعرية من كلِّ رداءٍ لبست في الجاهلية ولمَّا تخلعها مهما ادعت خلعها، فتنفرد هذه القلوب لشعار الإسلام وشعوره تاركة كلَّ شعور وشعار لغير الإسلام.

إن العرب كانت تعتبر - ولا تزال - أن الكعبة المباركة هي بيت العرب المقدس، والله يريد لها منهم أن تكون بيت الله المقدس «مثابةً للناس وقياماً

(١) الدر المنثور ١: ١٤٦ - أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: بلغني أن ناساً...

للناس - ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[١] دون تميُّز لقوم، ولا تمييز بين عربي وأعجمي.

ومهما كان الانخلاع - وإن مؤقتاً - عن ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[٢] الذي رفع قواعده الخليل وعظّمه الجليل - مهما كان «كبيرة» لكنها على من لم يهد الله ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

ثم وردّاً على غيلة السفهاء من الناس - القائلة -: إذاً فصلوات الذين صلّوا إلى الكعبة طيلة العهد المكي باطلة - إذا كانت القبلة هي القدس - أم وصلوات الذين صلوا إلى القدس باطلة حين حوّلت القبلة عنه إلى الكعبة المباركة، وكما «قال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القِبْلة كيف بصلاتنا نحو بيت المقدس» فأنزل الله:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

هنا تُسمى الصلاة نحو القبلة الشرعية - كعبة أو قدساً - إيماناً، لأنها قاعدة الإيمان وعمود الدين، وأنها كانت بنزعة الإيمان، فالذين صلّوا نحو القدس تركاً لبيت مجدهم القديم لم يصلّوا نحوه إلّا إيماناً بالله واحتراماً لأمر الله، بل وصلاتهم أقرب إلى الله زلفى ممن صلّوا من قَبْلُ ومن بَعْد إلى المسجد الحرام، فكيف يضيع الله إيمانهم وهو الذي أمرهم باستقبالهم نحو القدس ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فهل إن علامة اتّباع الرسول ضائعة عند الله؟!... هنا ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ هي ثاني التأشيرات بعد ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ تأييداً لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة، حيث العلامة هذه تحصل في بداية الفترة المدنية، دون حاجة إلى هذه الطائلة

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.